جامعة سيدي محمد بن عبد الله
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
ظهر المهراز- فاس
شعبة الدراسات الإسلامية

د. عبد الوهاب الجايي

مادة الأديان – الفصل الرابع –

يمكن مقاربة علم الأديان عبر مداخل متعددة ودراسات متنوعة، تسلط الضوء على موضوعاته ومناهجه ومؤلفاته ومدارسه، وتكشف الأبعاد العقلانية والأخلاقية والإنسانية المضيئة في الدين دراسة ونقدا وتحليلا.

ومن ثم، تعتبر دراسة الأديان دراسة تاريخية ونصية، رافدا من روافد الثقافة الإسلامية، ومظهرا من مظاهر الحوار والمناظرة في تاريخ الفكر الإنساني؛ فالدين يمثل في وعي الإنسان عاملا أساسيا في إرساء الأنظمة الاجتماعية، وسيرورة الثقافات والحضارات، فهو من جهة يقدم نموذجا معرفيا لإدراك الوجود وتفسير العالم، ومن جهة أخرى يحدد القواعد ومناهج السلوك التي تؤطر العلاقات البشرية.

لأجل ذلك، فإن موضوع الأديان يعتبر من بين أقدم ما شغل العقل الإنساني، منذ ظهور البوادر الأولى للتفكير عند الإنسان في مختلف الحضارات التي عرفها التاريخ الطويل للإنسانية، إذ حضور الدين بصم اهتمامات الإنسان منذ خلقه و لازم وجوده في جميع مراحل حياته. إذ لا يوجد مجتمع لا دين له، وقد كتب "برغسون": نجد في الماضي، وقد نجد حتى اليوم مجتمعات ليس لها علم ولا فن ولا فلسفة، لكن ما كان ثمة أبدا من مجتمع دون أن يكون له دين".

المقاربة الأولى: المفهوم

تواجه الباحث إشكالية تحديد مفهوم الدين، خصوصا عند إخضاعه للدرس العلمي، إذ تختلف التعريفات باختلاف المرجعيات والمدارس، خصوصا بعد تدخل المذاهب الفلسفية واستعمالات الفلاسفة ومقاربات المدارس النفسية والاجتماعية والأنتروبولوجية... لأجل ذلك فإن الضرورة المنهجية تقتضي من الباحث ملاحقة مفهوم الدين في المعاجم اللغوية والاصطلاحية والفلسفية، ثم في معاجم الأديان وفي الاستعمال الفلسفي، ويقف ضرورة عند مقاربات المدرسة النفسية ومدرسة الدراسات الاجتماعية، وعند علماء اللاهوت ورجالات الكنيسة....ثم يختم بالتأصيل لمفهوم الدين في النص القرآني.

مع التأطير للمقاربة المفهومية ، أولا بتصور إشكالي؛ تأصيلا تنظيرا وتنزيلا. ثم الانتباه للمصطلحات المركبة من مثل تاريخ الأديان، مقارنة الأديان، دراسة الأديان، فلسفة الأديان، سيكولوجية الأديان، سوسيولوجية الأديان.

أولا: مفهوم الدين لغة

يقول صاحب لسان العرب (دين) الديان من أسماء الله عز وجل، معناه الحكم القاضي، والديان والقهار، والديان الله عز وجل، والديان والقهار، وقيل الحاكم والقاضي، وهو فعال، ومن دان الناس أي قهرهم على الطاعة، يقال دنتهم فدانوا، أي قهرتهم فأطاعوا. والجمع أدين مثل أعين ...ودنت الرجل: أقرضته فهو مدين ومديون... دنت الرجل أدنته، أعطيته الدين الى أجل قريب... والدين: الجزاء والمكافأة، ودنته بفعله دينا جزيته، وقيل: الدين المصدر والدين الاسم، وداينه مداينة وديانا. ويوم الدين يوم الجزاء، وفي المثل كما تدين تدان؛ أي كما تجازى بفعلك وبحسب ما عملت.

والدين الحساب، ومنه قوله تعالى" مالك يوم الدين" وقيل معناه: مالك يوم الجزاء. والدين الطاعة، وقد دنته ودنت له أي أطعته والجمع: الأديان: يقال دان بكذا ديانة، وتدين به فهو دين ومتدين، والدين الإسلام وقد دنت به.

والدين العادة والشأن، تقول العرب: مازال ذلك ديني وديدني أي عاداتي.
(يراجع ابن منظور: لسان العرب مادة دين ج 17 ص 24-30)

أما صاحب القاموس المحيط فيقول: الدين بالكسر: الجزاء، وقد دنته بالكسر دينا وقد دنت به بالكسر: العادة والعبادة والطاعة والذل والداء والحساب والقهر والغلبة والاستعلاء والسلطان والملك والحكم والسيرة والتدبير والتوحيد، واسم لجميع ما يتعبد الله عز وجل به، والملة والورع والمعصية والإكراه والقضاء.
والديان: القهار والقاضي والحاكم والسائس والحاسب والمجازي، والمدين العبد.

وفي الحديث كان النبي صلي الله عليه وسلم، على دين قومه: أي على ما بقي فيهم من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، في حجهم وبيوعهم وأساليبهم، وأما التوحيد فإنهم كانوا قد بدلوه، والنبي (صلعم) لم يكن إلا عليه.
(راجع القاموس المحيط للفيروزبادي جزء 4)

مما تقدم يمكن استخلاص المعاني اللغوية لمفهوم الدين بمشتقاته المتنوعة على الشكل الآتي:

-الديان: اسم من أسماء الله معناه الحاكم القاضي.
-الديان: القهار
-الدين: الطاعة والخضوع
-الدين: مفرد ديون، والدين يعني القرض
-الدين: الموت
-الدين: الجزاء والحساب
-الدين: العادة والشأن

والناظر المدقق يجد أن هذه المعاني تمثل في مجموعها وحدة موضوعية متداخلة، تؤكد على معنى الخضوع والتسليم والطاعة، وذلك لا يتحقق إلا من خلال إحساس باطني، بأنه توجد في هذا الكون قوة واحدة حاكمة مدبرة قاضية محاسبة إليها المرجع في كل أمر.
(راجع: سعيد مراد، المدخل في تاريخ الأديان صص 9-11)

أما الراغب الأصفهاني في كتابه: المفردات في غريب القرآن"، فقد حرص على استقصاء معنى الدين في شرحه لمعاني مفردات القرآن الكريم، وهذه

المعاني أتت جامعة للمفهومين معا اللغوي والاصطلاحي، مع تغليب للدلالة اللغوية، يقول: دين: يقال دنت الرجل: أخدت منه دينا، وأدنته، جعلته دائنا، قال أبو عبيدة: دنته أقرضته، ورجل مديون، ودنته: استقرضت منه، وأدنت مثل دنت، وأدنت أي أقرضت.

والتداين والمداينة: دفع الدين، والدين يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة والدين كالملة - لكنه يقال اعتبارا بالطاعة والانقياد للشريعة، قال تعالى : إن الدين عند الله الإسلام"، " ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن" أي طاعة، " وأخلصوا دينهم" " يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم" – وذلك حث على اتباع دين النبي (ص) الذي هو أوسط الأديان.

كما يقال "وكذلك جعلناكم أمة وسطا" وقوله:" لا إكراه في الدين" قيل: يعني الطاعة – فإن ذلك لا يكون في الحقيقة إلا بالإخلاص، والإخلاص لا يتأتى فيه الإكراه. وقيل: إن ذلك مختص بأهل الكتاب الباذلين للجزية.

يتوضح مما سبق أن الإمام الأصفهاني ربط معنى الدين بالإسلام، ولعل ذلك له ارتباط بتخصصه في دراسة مفردات غريب القرآن.
(راجع الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص 253)

صاحب الكليات سلك مسلكا منهجيا، حيث عرض المفهوم عبر تقسيماته اللغوية ثم الاصطلاحية، ثم ربط بين الدين والملة والمذهب والشريعة، يقول : " الدين بالكسر في اللغة العادة مطلقا ، وهو أوسع مجالا يطلق على الحق والباطل، ويشمل أصول الشرائع وفروعها، لأنه عبارة عن وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات، كالاعتقاد والعلم والصلاة.

وقد يتجوز فيه ويطلق على الأصول خاصة، فيكون بمعنى الملة، وعليه قوله تعالى: دينا قيما ملة إبراهيم"، وقد يتجوز فيه أيضا فيطلق على الفروع في قوله تعالى: " ذلك دين القتمة" أي الملة القيمة يعني فروع هذه الأصول.

والدين منسوب إلى الله تعالى، والملة إلى الرسول، والمذهب إلى المجتهد. والملة: إسم ما شرعه الله لعباده على لسان نبيه، والدين مثلها، لكن الملة تقال باعتبار الدعاء إليه، والدين باعتبار الطاعة والانقياد له.

والملة: الطريقة أيضا ، ثم نقلت إلى أصول الشرائع، من حيث أن الأنبياء يسلكونها، ويسلكها من أمروا بإرشادهم بالنظر إلى الأصل، وبهذا لا تضاف إلا إلى النبي الذي تستند إليه ولا تكاد توجد مضافة إلى الله تعالى، ولا إلى آحاد أمة النبي، ولا تستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحادها، فلا يقال ملة الله، ولا ملتي، ولا ملة زيد، كما يقال دين الله، وديني، ودين زيد.

والشريعة: تضاف إلى الله والنبي والأمة، وهي من حيث أنها يطاع بها تسمى دينا، ومن حيث إنها يجتمع عليها تسمى ملة، وكثيرا ما تستعمل هذه الألفاظ بعضها مكان بعض، ولهذا قيل إنها متحدة بالذات ومتغايرة بالاعتبار؛ إذ إن الطريقة المخصوصة الثابتة عن النبي تسمى بالايمان من حيث إنه واجب الإذعان، وبالإسلام من حيث إنه واجب التسليم، وبالدين إنه يجزى به، وبالملة من حيث إنه مما يملى ويكتب ويجتمع عليه، وبالشريعة من حيث إنه يرد على زلال كما يرد له المتعطشون، وبالناموس من حيث إنه أتى به الملك الذي هو الناموس وهو جبريل عليه السلام.

والدين الجزاء والطاعة والذل والاستعباد، ويكون بمعنى القضاء، وبمعنى الحال: سئل بعض الأعراب فقال: لو كنت على دين غيره لأجبتك؛ أي على حال غيره.
(انظر: الكليات لأبي البقاء ج2 ص 327-329)

ثانيا: مفهوم الدين اصطلاحا

لابد من الإشارة إلى التداخل القائم بين الدلالة اللغوية والاصطلاحية، إذ الاصطلاح معنى للفظ يحتمله لغة.

يقول جابر بن حيان في كتابه " الحدود" : إن حد علم الدين أنه صور يتحلى بها العقل استعملها فيما يرجى الانتفاع به بعد الموت.
وحد العلم إنه العلم المقصود به أفضل السياسات النافعة دينا ودنيا، لما كان من منافع الدنيا نافعا بعد الموت. (جابر بن حيان: كتاب الحدود ص 179- 171)

يلاحظ أن جابر بن حيان يعرف علم الدين وليس الدين، ومع ذلك فالمقصود من الدين الطاعة والتسليم والعمل بالشريعة، وأيضا معنى الجزاء والحساب.

أما الجرجاني فيقول: الدين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول صلى الله عليه وسلم. الدين والملة متحدان بالذات ومختلفان بالاعتبار، فإن الشريعة من حيث أنه تطاع تسمى دينا، ومن حيث أنها تجمع تسمى ملة، ومن حيث أنه يرجع إليها تسمى مذهبا ، وقيل الفرق بين الدين والملة والمذهب، أن الدين منسوب إلى الله تعالى، والملة منسوبة إلى الرسول، والمذهب منسوب إلى المجتهد.
(الجرجاني : التعريفات ص 105- 106)

ويرى التهانوي في كتابه كشاف اصطلاحات الفنون أن الدين وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل، وهذا يشمل العقائد والأعمال ويطلق على كل ملة وعلى كل نبي، وقد خص الدين بالإسلام، ويضاف الى الله تعالى لصدوره عنه، وإلى النبي (ص) لظهوره منه، وإلى الأمة لتدينهم وانقيادهم؛ إذ الأحكام التي شرعها الله تعالى لعباده من حيث أنها تطاع دين، ومن حيث أنها مشروعة شرع، فالتفاوت بينها بحسب الاعتبار لا بالذات، إلا أن الشريعة والملة تضافان إلى النبي عليه السلام، وإلى الأمة فقط استعمالا، والدين يضاف الى الله تعالى أيضا، وقد يعبر عنه بعبارة أخرى فيقال : هو وضع يسوق ذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات وهو ما يجعلهم في معاشهم ومعادهم.
(التهانوي: كشاف اصطلاح الفنون ج 3 ص 110)

ثالثا: مفهوم الدين في المعاجم الفلسفية

أ: هو مجموعة معتقدات وعبادات مقدسة تؤمن بها جماعة معينة، يسد حاجة الفرد والمجتمع على السواء، أساسه الوجدان وللعقل مجال فيه.

ب: قال الفارابي: الدين والملة يكادان يكونان اسمين مترادفين.

وللفظ الدين في الفلسفة الحديثة عدة معان:
-الدين جملة من الإدراكات والاعتقادات والأفعال الحاصلة للنفس من جراء حبها لله وعبادتها إياه وطاعتها لأوامره.

-الدين الايمان بالقيم المطلقة والعمل بها، كالايمان بالعلم أو الايمان بالتقدم، أو الايمان بالجمال أو الايمان بالإنسانية..... ففضل المؤمن بهذه القيم كفضل المتعبد الذي يحب خالقه ويعمل بما شرعه.

ومن معاني الدين عند الفيلسوف الاجتماعي " دوركايم" أنه مؤسسة اجتماعية قوامها التفريق بين المقدس وغير المقدس ولها جانبان: أحدهما روحي مؤلف من العقائد والمشاعر الوجدانية، والآخر مادي مؤلف من الطقوس والعادات.

ويمكن دراسة الدين من زوايا متعددة على النحو التالي:

= تاريخ الأديان: التمييز بين عقيدة التوحيد وعقيدة تعدد الآلهة بين الأديان البدائية والأديان المعاصرة.

= فلسفة الدين: التفكير الإنساني، ماهية الدين وحقيقته وطبيعة البشر، ومشكلة الكفاية ومصير النفس الإنسانية

= سيكلوجية الدين: دراسة الشعور الديني الفردي والجماعي مضمونه وظاهره.

= سوسيولوجيا الدين: دراسة الطابع الاجتماعي للدين، والطقوس المرئية والشعائر العامة.

رابعا: الدين عند الفلاسفة:
يقول شيشرون في كتابه عن القوانين " الدين هو الرباط الذي يصل الإنسان بربه"

أما توماس هوبز فيعتبر الدين ظاهرة اجتماعية أي مذهب في القانون، لذلك تجده يقول إن الدين ليس فلسفة بل هو قانون، والإنسان في نظره هو وحده الحيوان المتدين، فلا دين للكائنات الأخرى، وإذا كانت ثمرات الدين لا توجد إلا عند الإنسان ، فإن بذور الدين لا توجد أيضا إلا عند الإنسان دون الحيوان.

ويذهب hopz إلى أن هناك نوعين من الدين : الأول وثني أو بدائي أو الخرافة بصفة عامة، والثاني الدين الحق أو المنزل أو الموحى به، لكن الأساس واحد لكليهما في الطبيعة البشرية ويقصد بذلك البذور الطبيعية.

أما "أوجست كانت" فيعتبر الدين أساسا جوهريا في قيام المجتمع الإنساني، فكلمة دين عنده تفقد معناها السامي في الديانات، ولا تدل في فلسفته إلا على اتحاد الأفراد في الحب والانسجام التام بين العقل والقلب، والدين الوضعي في نظره هو دين الإنسانية، لأنها الحقيقة المجردة السامية التي يجب أن نتجه إليها بكل قلوبنا وعقولنا، ولابد أن تطغى العاطفة على العقل فتتلاشى الفردية ويحل مبدأ " عش الغير" محل الأنانية والذاتية.

ويقدم "كانط " تفسيرا أخلاقيا للدين، ويضع الدين الأخلاقي على رأس تفسيره للظاهرة الدينية، ويتضح ذلك في كتابه : الدين في حدود العقل وحده" فهو يرى ان الهدف هو فحص الوحي من حيث انه نسق تاريخي على ضوء مفاهيم أخلاقية ، والمقصود أن لا فرق بين الأخلاق والدين، وأن حقيقة الدين لا يمكن تحديدها وفقا لمعايير نظرية خالصة، بل يجب النظر الى أثره الأخلاقي. ولذلك ذهب "باروخ اسبينوزا" الى أن الايمان مرهون بالعمل لا بالنظر.